الفصل الأول

حول كتابة تاريخ الطبقة العاملة

obeikandl.com

كتابة

تاريخ الطبقة العاملة المصرية مهمة يكتنفها كثير من العقبات ، بل ان هذه العقبات لتتضاعف وتشتد عندما تكون الكتابة من خلال عمل فردى يقصر عن استنفار جهود الآخرين أو يعجز عن اثارة اهتمامهم وكسب تعاونهم . فتاريخ الطبقة العاملة — فى رأيى — لا يمكن أن ينال حقه الكامل من الانجاز من خلال الجهد الفردى مهما كانت طاقات هذا الجهد . وفى تقديرى أن السبيل الأمثل لاتمامه هو أن يسند الى جماعة أوهيئة قادرة على تجنيد الباحثين والكتاب والمؤرخين وتقسيم العمل بينهم والتنسيق بين جهودهم . ولن يتم ذلك فى الواقع ما لم تصبح هذه المهمة الشغل الشاغل للحركة العمالية ذاتها ؛ بما يتوافر لديها الآن من امكانيات جبارة وتنظيمات نقابية عريقة وقيادات رسمية او فكرية . فاذا لم يجد تاريخ الطبقة العاملة عند هؤلاء القوم ما يستحقه من الاهتمام ، فلا أقل من أن يصيب قدرا من عناية الجامعات وكلياتها المسئولة واساتذتها ومؤرخيها الأكفاء . ولا أقل أيضا من أن يكون للاتحاد الاشتراكى العربى سهم فى هذه المهمة باعتباره طليعة للفكر وللعمل الوطنى والاشتراكى الذى تلعب الطبقة العاملة دورا أساسيا فى حمل مسئولياته .

أما أن تقع هذه المهمة العسيرة ـ والكبيرة ـ على عاتق الجهد الفردى فان ذلك يحرمها أفضل شروط النجاح .

ولسنا نجرى الحديث عن العقبات هنا على سبيل تبرير القصور أو التماس العذر للنقائص والأخطاء ، وانما نجريه اقرارا لواقع أكيد . فالكتاب يكاد يبدأ من فراغ . وهذا قول لا مبالغة فيه اذ ليس هناك من سوابق البحوث التاريخية ما يمكن الاعتماد عليها ، بل ربما كان علينا فى بعض الأحيان أن نلتزم جانب الحذر ازاء المحاولات التى بذلت من قبل مخافة الوقوع فى أخطاء شائعة أو قبول أحكام مبتسرة .

لقد كانت المشكلة ـ فى واقع الأمر ـ ذات شقين أساسيين : أولهما مشكلة الكشف عن المصادر الحقيقية للبحث ومن ثم الوصول اليها واستخدامها بقدر ما يسمح به الجهد الفردى وامكانيات الوقت والتفرغ . وثانيهما مشكلة تحديد المنهج الواجب التزامه فى صياغة تاريخ الطبقة العاملة .

لقد كانت مشكلة المصادر ـ بحق ـ العقبة الكئود على طريق هذا البحث . فالمؤرخون ـ أو أغلبهم على كل حال ـ الذين تناولوا تاريخ مصر الحديثة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهى الفترة التى شهدت ارهاصات نشوء الطبقة العاملة ونموها المبكر ، لم يعنوا عناية تذكر بالجانب الاجتماعى فى حركة التاريخ ، وبالتالى فانهم

اسقطوا من حسابهم تاريخ القوى الاجتماعية وخاصة تاريخ الطبقات الشعبية واهمها العمال والفلاحون . ولم يكن يجدينا كثيرا ان نلتمس عندهم العون فى سعينا للحصول على مادة علمية مباشرة تخدم هذا التاريخ . ولكن مؤلفاتهم ظلت رغم هذا القصور الفادح مصدرا هاما لمتابعة الاطار السياسى العام لحياة الطبقة العاملة وحركتها . ولم يخرج على هذا الاتجاه السائد بين المؤرخين غير نفر قليل نذكر منهم دكتور محمد انيس ودكتور السيد رجب حراز فى مؤلفهما الهام « ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ واصولها التاريخية »، وشهدى عطيه الشافعى فى كتابه « تطور الحركة الوطنية المصرية (١٩٥٧) ودكتور راشد البراوى فى كتابه « حقيقة الانقلاب الاخير فى مصر » وكتاب احمد زكى « تاريخ مصر الاجتماعى » وكتاب صبحى وحيده « فى اصول المسألة المصرية » (١٩٥٠) .

وضاعف من صعوبة الكشف عن المصادر أيضا ما اتسمت به الطبقة العاملة المصرية من عجز ـ أو نفور تام ـ عن تسجيل حركتها ونشاطها . والواقع أن لهذه السمة جانبين متميزين : **اولهما** أن قادة الطبقة العاملة وخاصة فى التنظيمات النقابية لم يمارسوا كتابة التراجم الذاتية او المذكرات الخاصة ، ونادرا ما سجلوا آراءهم أو مواقفهم بغرض النشر . ولا يخفى ان هذه الوسائل كان يمكن أن تحفظ لنا كثيرا من أحداث تاريخ الطبقة العاملة ونبض حياتها ورجالها . **وثانيهما** أن المنظمات العمالية ـ وخاصة النقابات ـ لم تحسن فى يوم من الأيام مسك

دفاترها أو حفظ محاضرها بشكل يضمن لها البقاء على مر الايام . والأرجح أن ما تم تسجيله من اعمالها لم يلبث أن لقى من الاهمال وقلة العناية ما عجل باندثاره . كما اختفى ما بقى من هذا وذاك خلال غارات البوليس ورجال الامن فى فترات القهر والارهاب التى طالما تعرضت لها الطبقة العاملة المصرية .

واذا كانت هاتان العقبتان ـ بطبيعتهما ـ مما يصعب تذليله ، فان لتاريخ الطبقة العاملة المصرية **مصادر اخرى** من الممكن الوصول اليها اذا انتقل الجهد من مستوى العمل الفردى الى مستوى العمل الجماعى المنظم ، واذا توافرت لهذا الجهد مساندة رسمية أو شعبية واعية .

ويأتى فى المحل الأول ـ ضمن هذه المصادر ـ ما يمكن أن نسميه « مجموعة الوثائق الرسمية » . ولعل أهمها فى تقديرنا محاضر اقسام البوليس فى القاهرة والاسكندرية ومدن القنال والمحلة الكبرى فى الفترة من ١٨٩٠ الى ١٩٣٩ . وتستمد هذه المحاضر أهميتها من حقيقة خاصه تتصل بتطور علاقة الدولة بالطبقة العاملة فى مصر . فقد ظلت مشاكل العمل والعمال ـ طوال هذه الفترة ـ ضمن مسئوليات وزارة الداخلية تتولاها اقسام البوليس فى اعمالها اليومية وترصدها فى دفاتر الأحوال مثل الحوادث الجارية ومعارك الجيران والجرائم . ولا شك ان هذه المحاضر تضم فيضا من المعلومات والبيانات الهامة عن منازعات العمل والاضرابات والنشاط النقابى وغير ذلك من مظاهر حركة الطبقة العاملة وحياتها . وقد تأكد لنا ان

جانبا كبيرا من هذه المحاضر ودفاتر الاحوال لا يزال حبيس المخازن المظلمة فى دار المحفوظات . ومن الممكن لو بذل جهد جماعى ان تخرج الى الضوء ويجرى تحليلها وتصنيفها ومن ثم نشرها كوثائق تاريخية لمن يريد استخدامها من الباحثين أو المؤرخين .

ويتصل بهذه المصادر ـ أيضا ـ مجموعة تقارير لجنة التوفيق المركزية فى الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٢٤ . وقد تحققنا من أن هذه اللجنة كانت تصدر تقريرا عن أعمالها كل ثلاثة شهور تعرض فيه نشاطها والمشاكل العمالية التى قامت بتسويتها . ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق اذا كان هذا التقليد قد أستمر بعد عام ١٩٢٤ حينما توقفت أعمال هذه اللجنة لتحل محلها لجان محلية فى المديريات ؛ ولكن قد يعوضنا عن ذلك مؤقتا التقرير العام الذى أعدته لجنة رضا باشا التى كلفت بوضع مشروع قانون العمل عام ١٩٢٧ . بعنوان : « **مشاكل العمال فى مصر من واقع اعمال لجان التوفيق من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢٧ ويشمل هذا البحث أعمال لجنة التوفيق العامة وأعمال لجنة التوفيق المحلية** » . وفى تقديرنا أن هذا التقرير ـ يوم أن نعثر عليه ـ سيصبح كثيرا من معلوماتنا عن هذه الفترة بقدر ما يزودنا ببيانات كثيرة نحن فى حاجة ماسة اليها اليوم من أجل استكمال صورة الحركة العمالية فى أعقاب الحرب العالمية الاولى .

وتكمل هذه المجموعة من المصادر مجموعة أخرى من تقارير « مكتب العمل » الذى أنشىء عام ١٩٣٠ والمحفوظات

المتخلفة عنه قبل أن يضـــم الى وزارة الشئون الاجتماعية عام ١٩٣٩ . ولهذه المجموعة أهمية مزدوجة : فهى تكشف جانبا من الآثار التى خلفتها الأزمة الاقتصادية العالمية فى حياة الطبقة العاملة المصرية ، كما تلقى ضـوءا سـاطعا على مرحلة هامة من مراحل بدء تشريع العمل والاتجاهات التى سيطرت عليه .

والمصدر المهم الثانى لتاريخ الطبقة العاملة المصرية ـ وخاصة فى الفترة من ١٨٩٠ الى ١٩٣٦ ـ **مجموعة التقارير الاجنبية** عن مصر واحوالها .

ويقع ضمن هذه المجموعة تقارير المعتمدين البريطانيين قبل اعلان الاستقلال الشكلى عام ١٩٢٢ وفيمـــا تلا ذلك من سنوات . وتعتبر تقارير اللورد كرومر من اهم هـذه التقارير بدون منازع . والمعروف أن الحظر الذى تفرضه الحكومة البريطانية على هذه التقارير يرفع عادة بعد مرور خمسين سنة من صدورها ، بل ان بعضها قد سمح بنشره فعلا ـ بصورة ما ـ فور صـدورها مباشرة . وأهميـة هذه التقارير أنها كانت تتناول الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السـائدة فى مصر فى زمانها ، وتكشف عن جوانب خطيرة من الادارة الاستعمارية البريطانية خلال هـذه الفترة المظلمة من التاريخ المصرى .

ويندرج ضمن هذه المجموعة ايضا ـ وان كان يخدم فترة مبكرة من التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ـ مجموعة تقارير الفنيين البريطانيين وبعض قناصل الدول الكبرى فى عصر محمد على . وقد جمع جانب كبير من هذه التقارير

وترجمت الى العربيه ونشرت فى كتاب « بناء دولة » : مصر محمد على (السياسة الداخلية) الذى أعدته مجموعة من المؤرخين المصريين عام ١٩٤٨ تضم دكتور محمد فؤاد شكرى والاستاذ عبد المقصود العنانى والاستاذ سيد محمد خليل .

ومتابعة هذه التقارير الاجنبية على مر السنين جدير بأن يكشف لنا مثلا وثائق السلطات الحربية البريطانية حول تشكيل فرقة العمل المصرية من الفلاحين والعمال للخدمة خلال الحرب العالمية الاولى . وعمال المعسكرات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية وعمال القنال فى أعقاب هذه الحرب ، وغير ذلك من الاعمال أو الاحداث المتصلة بحياة الطبقة العاملة المصرية .

والمصدر الثالث لتاريخ الطبقة العاملة المصرية هو **مجموعة الصحافة المصرية** منذ عام ١٨٩٠ . ويعتبر هذا المصدر أيسر المصادر التى فى متناول يد الباحثين ، وأكثرها زخرا بالاخبار والمعلومات المفيدة عن الطبقة العاملة ، ولكن يعيب هذا المصدر حقا ان الطبقة العاملة لم يكن لها نصيب يذكر من ملكية الصحافة المصرية او النفوذ عليها ، بل كانت قسمة مشتركة بين القوى الاجتماعية الاخرى تعبر عن آرائها وتعنى بأنبائها ، وتقف فى أغلب الاحيان موقفا مناؤئا للطبقة العاملة وحركتها .

وعلى الرغم من ذلك ، فان الباحث المدقق سيجد فى مجموعة الصحافة المصرية مصدرا هاما ـ وأساسيا احيانا ـ للمعلومات والاحداث . والحصول عليها يساعد على

ضبط تسلسل الحوادث كبداية ضرورية لتحليلها والربط بينها وفهم حقيقتها ومضمونها .

تلك ـ اذن ـ فى راينا هى المصادر الرئيسية لتاريخ الطبقة العاملة المصرية . وهى كما عرفنا موزعة الى ثلاث مجموعات : مجموعة الوثائق الرسمية ، ومجموعة التقارير الاجنبية ومجموعة الصحافة المصرية .

والتاريخ الحالى الذى نقدمه فى هذا الكتاب هو محصلة الاطلاع **الجزئى** على مجموعة الوثائق الرسمية والتقارير الاجنبية ، والاطلاع الذى **يقارب التمام** على مجموعة الصحافة المصرية . ونحن نعترف ـ منذ البداية ـ بأن لا سبيل الى كتابة تاريخ حقيقى للطبقة العاملة المصرية ما لم تصبح هذه المجموعات كاملة تحت يد الباحث وهذا لن يتحقق الا من خلال عمل جماعى منظم .

فمن مجموعة الوثائق الرسمية حصلنا على جانب **محدود من تقارير لجنة التوفيق العامة** ، وبعض تقارير مكتب العمل . ومن مجموعة التقارير الاجنبية حصلنا على تقارير اللورد كرومر ومجموعة التقارير المترجمة للقنصلين البريطانيين والقناصل التى اشرنا اليها من قبل . ولكننا عجزنا تماما عن الحصول على محاضر اقسام البوليس رغم اهميتها البالغة .

ومن مجموعة الصحافة المصرية تلقيت معونة كبيرة من الباحثين المصريين السيدة بثينة صالح والسيد/ابراهيم سلطان اللذين عملا معى اكثر من اربع سنوات فى جمع

حصيلة وافرة من أنباء الطبقة العاملة من مجموعة الصحف المصرية بين عام ١٨٩٠ وعام ١٩٤٢ . وشملت جهودهما جرائد المؤيد واللواء والاهرام والمقطم والسفور والاخبار واتحاد العمال . وعلى الرغم من وجود فجوات زمنية عديدة فيما جمعاه من مواد نتيجة لصعوبة الحصول على المجموعات الكاملة للصحف . فان الحصيلة التى حققاها كانت لها فائدة كبيرة ومزدوجة : فمن ناحية أعطانا هذا التجميع الفذ منطلقا حقيقيا نحو متابعة الخطوط العريضة لتاريخ الطبقة العاملة مع الكشف عن وثائق هامة وأسماء لقيادات كاد ان يطويها النسيان . ومن ناحية أخرى أعطانا هذا التجميع احساسا قويا بالمناخ العام الذى أحاط بالطبقة العاملة ، والأوضاع التى أحدثتها هذه الطبقة فى القوى الاجتماعية والسياسية المعاصرة .

وبالاختصار كانت حصيلة البحث فى مجموعة الصحافة المصرية أشبه بعملية وضع الشواهد على القبور المهجورة الصامتة لتعلن عن هوية ساكنيها من الرجال والنساء البسطاء الذين قامت على أكتافهم ـ وبفضل شجاعتهم وتضحياتهم ـ مؤسسات الطبقة العاملة ونظمها وقيمها وحركتها .

والحقيقة اننى لم أكن أسير فى هذا الطريق بمفردى . فالحلم الذى راودنى سنوات طويلة من أجل كتابة تاريخ الطبقة العاملة المصرية لم يكن وقفا على ، بل كنت أشارك فيه مع آخرين من جيلى . فمنذ سنوات ـ وحول هذا الحلم ـ

تجمع نفر من الباحثين العماليين راح كل منهم يبذل من الجهد الفردى لتحقيق هذا الحلم بقدر ما يسمح له وقته أو عمله . ولكن هذه الجهود ظلت فى النهاية ـ جهودا فردية متفرقة لا يضمها تخطيط مشترك ولا ينسق بينها عمل جماعى منظم.

وقد برز من صفوف هذه الجماعة المرحوم محمد حلمى ابراهيم الذى اهتم بالبحث فى الاصول التاريخية للنقابات المصرية وتمكن ـ قبيل وفاته المبكرة ـ من أن ينشر سلسلة من الدراسات الرائدة بمجلة التأمينات الاجتماعية كشف فيها كثيرا من الغموض الذى كان يخيم على نشوء الحركة النقابية فى مصر . وقد جمع المعهد العالى للدراسات الاشتراكية هذه الدراسات لتكون ضمن القراءات المقررة فى برامجه .

وشهد عام ١٩٦٦ باكورة انتاج باحثين جادين اختارا أن يربطا بين هدف البحث فى تاريخ الطبقة العاملة وبين هدف التحصيل الأكاديمى فى الجامعة ، وهما الدكتور سليمان محمد النخيلى الذى قدم رسالته للدكتوراه فى موضوع موقف الصحافة المصرية من الحركة العمالية ، والاستاذ رءوف عباس الذى قدم رسالة الماجستير فى التاريخ فى موضوع تطور الحركة العمالية المصرية .

وهناك ـ ولا شك ـ اسماء لباحثين آخرين فى تاريخ الطبقة العاملة مثل الاستاذ جمال البنا والاستاذ عبد المنعم الغزالى الجبيلى ـ ولكنهم لم ينشروا من نتائج أبحاثهم الا النذر اليسير رغم طول ما بذلوه من وقت وجهد فى تجميع المادة العلمية والوثائق .

واذا كنت أخص هذه المجموعة الصغيرة بالذكر ، فذلك لأنهم متفقون فى موقفهم ازاء أسلوب البحث فى تاريخ الطبقة العاملة • فهم ـ وان فرقت بينهم دروب العمل والحياة . مجمعون على أن السبيل الامثل الى كتابة تاريخ الطبقة العاملة المصرية ينبغى أن يبدأ بالبحث عن المصادر الرئيسية لهذا التاريخ ، ومن ثم الاتجاه الى هذه المصادر واستخدامها فيما يعدونه من بحوث • واذا كان هذا الاسلوب قد جمع بينهم فانه قد أصبح فى الوقت ذاته علامة مميزة لهم عن عشرات من المؤلفين الذين سبقوهم مثل الدكتور حسين خلاف والدكتور زكى بدوى وغيرهما ممن كتبوا مقدمات تاريخية لدراساتهم فى التشريع العمالى • ذلك أن هؤلاء المؤلفين القانونيين قد وقعوا جميعا ـ وبدرجات متفاوتة ـ تحت سيطرة كتابين مبكرين تناولا جانبا من تاريخ النقابات المصرية ، وهما كتاب المحامى الفرنسى جان فاليه الذى نشره عام ١٩١١ بعنوان : مساهمة فى دراسة أحوال العمل والعمال بالمصانع الكبرى فى مصر . وكتاب النقابى الرائد المرحوم سيد قنديل الذى نشره عام ١٩٣٧ بعنوان « نقابيتى » • وقد اكتفى هؤلاء المؤلفون بالنقل المباشر عن هذين الكتابين وظلت المعلومات التى نقلوها تنتقل بدورها من كتاب الى آخر دون تمحيص ، حتى ظهرت بوادر انتاج جماعة الباحثين المحدثين الذين أشرنا اليهم ، والذين فضلوا العودة الى المصادر الاصلية للتاريخ وبذل أقصى ما فى وسعهم من جهد للكشف عنها واستخدامها •

واذا كانت مشكلة المصادر قد أصبحت على هذا النحو من الوضوح فان مشكلة المنهج الواجب التزامه فى كتابة تاريخ الطبقة العاملة تحتاج الى قدر أكبر من البحث والمناقشة ·

فماذا نقصد ـ تماما ـ عندما نتحدث عن تاريخ للطبقة العاملة ؟ وهل يمكن أن يكتب هذا التاريخ بمعزل عن تاريخ الطبقات والقوى الاجتماعية الاخرى فى المجتمع ؟ واذا كان ذلك ممكنا حقا فما هى أبعاده الحقيقية ، أو ما هى الجوانب التى ينبغى أن يتناولها من حياة الطبقة العاملة، والتى بدونها لا يكون هذا التاريخ كاملا ؟ ·

ان الصعوبة التى يطرحها هذا التساؤل ـ فى واقع الامر ـ لا تكمن فى الشق الاول منه (وهو هل يمكن كتابه تاريخ الطبقة العاملة بمعزل عن تاريخ الطبقات والقوى الاجتماعية الأخرى فى المجتمع) فالطبقة العاملة حديثة النشأة بالنسبة لهذه القوى فى المجتمع المصرى ، وظهورها على خريطة المجتمع مع بداية القرن العشرين وفى ظروف اقتصادية واجتماعية معينة يجعل من اليسير التعرف عليها وتحديد ملامحها بقدر وافر من الوضوح · ولكن ذلك لا يعزلها عن القوى الاجتماعية الاخرى ، فقد نشأت الطبقة العاملة المصرية ـ كما سنرى ـ فى كنف الرأسمالية الاحتكارية الأجنبية ومؤسساتها الحديثة وخاصة فى المرافق ، فوضعتها هذه النشأة موضع التناقض الحتمى مع القوى الاجنبية ومع كل من ارتبط بها من القوى الاجتماعية المسيطرة فى ذلك الوقت· ومن ناحية أخرى ، وكما سنرى أيضا ، تشكلت الطبقة العاملة المصرية ـ فى الأساس ـ من جماعات الفلاحين المعدمين الذين

انتقلوا الى المراكز الحضرية ومن جماعات الصناع الحرفيين الذين تأثرت حرفهم نتيجة للمنافسة الاجنبية وأخذوا يقبلون العمل المأجور ، ولهذا فانهم أصبحوا فى موضع التحالف الطبيعى منذ البداية ، والفلاحون والصناع الحرفيون يشكلون خلفية بشرية للطبقة العامله المصرية ومصدرا من مصادر نموها وتضخمها باستمرار ٠

ومن هنا فان الدراسة التاريخية الجادة لايمكن أن تتم بطبيعة الحال الا اذا أبرزت باستمرار شكل العلاقات السائدة بين الطبقة العاملة وغيرها من القوى الاجتماعية ٠ ومعنى ذلك أن صعوبة تحديد المنهج لا تكمن ـ اذن ـ فى هذا التساؤل ، وليس هناك خلاف حول ضرورة احتواء تاريخ الطبقة العاملة لأشكال العلاقات التى تربطها مع غيرها من القوى الاجتماعية الأخرى فى المجتمع ٠

ان الصعوبة الحقيقية هى كيف نحدد الجوانب التى ينبغى أن يتناولها تاريخ الطبقة العاملة ٠ والواقع ان هذه المشكلة قد أثارت خلافات شديدة ـ حول المنهج ـ أسفرت فى نهاية الامر عن ثلاثة اتجاهات أساسية فى صفوف مؤرخى الطبقة العاملة :

فهناك اتجاه يركز أصحابه على **تاريخ الحركة النقابية** باعتبارها التنظيم الرئيسى الذىأنشأته الطبقة العاملة وطورته خلال صراعها من أجل شروط عمل وحياة أفضل ٠ ويسود هذا الاتجاه فى البلدان التى نمت فيها النقابات نموا كبيرا

وتمكنت من أن تفرض وجودها ونفوذها ـ الى حد بعيد ـ داخل هذه البلدان ٠

وهناك اتجاه ثان يمتاز بأنه أوسع أفقا وشمولا من الاتجاه السابق ٠ ويركز أصحابه على **تاريخ الحركة العمالية** التى يصورونها على انها حركة عريضة متكاملة ، تتكون من أجنحة متعددة من التنظيمات التى تنتمى الى الطبقة العاملة ٠ فهى تشمل الجناح النقابى باعتباره التنظيم المسئول عن الدفاع عن العمال كمنتجين ، والجناح التعاونى باعتباره التنظيم الذى يتولى الدفاع عن العمال كمستهلكين ، والجناح السياسى الذى يضم الاحزاب العمالية والاشتراكية التى تتولى مهمة الدفاع عن العمال كمواطنين ، كما تشمل الجناح الثقافى الذى يضم مؤسسات تعليم الكبار ودور النشر والصحافة العمالية والمسارح والاندية الادبية للعمال ٠

أما الاتجاه الثالث فيركز أصحابه على دراسة **تاريخ العلاقات الصناعية ووسائلها** ٠ فهو اتجاه يعنى بالبحث فى الوسائل والأساليب التى تستخدمها الطبقة العاملة فى الدفاع عن شروط العمل داخل المجتمع الرأسمالى ٠ ومن الطبيعى أن يحمل لواء هذا الاتجاه خبراء العلاقات الصناعية والمفكرون العماليون وبعض رجال الادارة بقدر ما ينفر منه المؤرخون ، كما يمتاز هذا الاتجاه بكثرة تفريعاته اذ يتسع لكافة الدراسات التاريخية ـ وغيرها ؛ التى تتناول الأجور ومنازعات العمل ووسائل تسويتها ، وتطور تشريع العمل والعلاقات العمالية الدولية وغير ذلك من الموضوعات المتخصصة ٠

وواضح أن هذه الاتجاهات تجتزىء جانبا ـ أو عدة

جوانب ـ من حياة الطبقة العاملة وحركتها على حساب جوانب أخرى عديدة · ولذا فانها قاصرة على أن تقدم لنا تاريخا شاملا للطبقة العاملة رغم أنها تساهم مساهمة جدية فى الصياغة النهائية لهذا التاريخ ·

ومن الخطأ أن نتصور أن الجمع بين هذه الاتجاهات فى منهج واحد يمكن أن ينتج تاريخا حقيقيا للطبقة العاملة · فمثل هذا الجمع قد يؤدى الى أعداد **موسوعة عمالية** ، ولكنه سيقصر تماما عن انتاج تاريخ للطبقة العاملة ·

ومهما يكن الأمر ، فان دراستنا لهذه الاتجاهات ، ومواصلة الاطلاع على المؤلفات التى تمثلها كان له أكبر الأثر فى وضع الصيغة النهائيه للمنهج الذى التزمنا به فى هذا التاريخ ، وهو منهج يستمد طابعه العام من الموضوع الذى يتناوله وهو الطبقة العاملة ذاتها ·

فمن ناحية ، يحقق هذا المنهج عرض الطبقة العامله «**كظاهرة اجتماعية**» لم تنشأ من فراغ بل نشأت فى ظروف اقتصادية واجتماعية معينه فرضتها حركة التاريخ المصرى الحديث ، ثم اخذت تتفاعل مع هذه الظروف المتغيرة على مر السنين ، ومن ناحية أخرى ، فان هذا المنهج يضمن متابعة **حركة الطبقة العاملة** وما تفرزه هذه الحركة من تنظيمات وأفكار وقيم فى المجتمع ، من شأنها أن تؤثر وتتأثر بحركة القوى الاجتماعية الأخرى المعاصرة لوجودها ·

وواضح أن المنهج ـ بهذا الشكل ـ يحمل التاريخ مهمة

مزدوجة : فهو يحتم متابعة الطبقة العاملة «كظاهرة اجتماعية» وما يطرا عليهـا من تغيير ، كما يحتم متابعة « حركة » الطبقة العاملة فى نفس الوقت ، ولم يكن من اليسير ـ دائما ـ تحقيق هذه المهمة بطرفيها أو أداؤها بقدر متعادل من الانجاز • فالمادة العلمية المتاحة لم تكن كافية دائما لمواجهة مايقتضيه المنهج • وهى أن توافرت أحيانا لمتابعة الطبقة العاملة كظاهرة اجتماعية فانها كانت تقصر عن استكمال دراسة حركتها ، أو العكس ، ولاشك أن ذلك يعيد الى أذهاننا الكثير من العقبات التى اكتنفت عملية الوصول الى المصادر ، وما يمكن أن تحدثه هذه العقبات من قصور أو أخطاء •

وكان من المفيد أن نمتحن هذا المنهج فى التطبيق • وقد تم ذلك فى عدة مواقع هامه • فمن ناحية قام المعهد العـالى للدراسات الاشـتراكية بطبع أجزاء من هذا الكتـاب ـ فى صورتها المبـدئية ـ ضمن برنامج الدراسة والقراءات المقررة على الدارسين وهم من القيادات الاشتراكية الواعية • كما تم نشر بعضها ـ أيضا ـ فى مجلة الطليعة مع نماذج من الوثائق العمالية الهامة التى كشفت عنها جهود البحث عن المصادر •

وقد أثار هذا النشر ـ فى الحالتين ـ ترحيب واهتمام الكثيرين ـ وتلقيت على أثره سيلا من الملاحظات ورسـائل النقد ، ممـا كان له أكبر الفائدة فى الاعداد النهـائى لهذا الكتاب •

ومن الطريف ـ حقا ـ أن النشر المبـكر لبعض أجزاء الكتاب أثار تساؤلا هاما ربما غاب عن فكرى وأفكار الكثيرين، وهو : **لماذا كل هذا الاهتمام بتاريخ الطبقة العاملة المصرية ؟**

وسواء طرح هذا التساؤل على سبيل الاستنكار من جانب الجماعات الرجعية المتخلفة، أو طرح بدافع الاستطلاع المخلص من جماهير القراء ، فان الاجابة عليه ستكون مفيدة فى جميع الاحوال ٠

ان العوامل التى جعلت كتابة تاريخ الطبقة العاملة يحظى عندى بكل هذا الاهتمام ، عوامل عديدة ومتشعبة ٠

فهناك مايمكن أن نسميها **العوامل الموضوعية** التى حركت هذا الاهتمام ٠ ولعل ابرزها ـ فى تصورى ـ الحاجة الملحة الى اعادة كتابة التاريخ المصرى وتحويله من مجرد تسجيل لسيرة السادة والحكام الى تسجيل لسيرة الشعب وكفاحه ٠ وكتابة تاريخ الطبقة العاملة ـ بطبيعة الحال ـ ستكون مساهمة لها وزنها فى هذه العملية ، وتجسيدا للدعوة التى تتردد فى صفوف المؤرخين الاشتراكيين لاعادة كتابة التاريخ المصرى ٠

وكتابة تاريخ الطبقة العاملة ـ من ناحية ثانية ـ أمر يحتمه التطبيق الاشتراكى الذى يقوده تحالف عريض من قوى الشعب العاملة ، لا شك ان الطبقة العاملة المصرية تلعب فيه دورا حاسما ومن المهم حقا أن يكون أبناء الطبقة العاملة ـ وقوى الشعب العامل عموما ـ على وعى عميق بالتاريخ وعلى قدر كبير من الفهم العلمى لحركته ٠ ولعل ظهور تاريخ الطبقة العاملة المصرية يكون حافزا للمؤرخين الاشتراكيين على اعداد تاريخ الفلاحين وتاريخ المثقفين وتاريخ الرأسمالية الوطنية وتاريخ الجندى المصرى وكفاحهم من أجل عالم أفضل ٠ ولا يخفى على الكثيرين أن فريقا من المؤرخين الغربيين أخذوا

يصدرون دراسات وبحوث تاريخية عن بعض هذه القوى ، يشـــوبها الكثير من التحيز وسوء التقدير · وستظل هـذه الدراسات تروج لما تحويه من مفـاهيم خاطئة ـ وتصورات متحيزة ـ عن حركة الشعب المصرى ، الى أن يصدر التاريخ الحقيقى لهذا الشعب على يد أبنائه المخلصين ·

وثمة عامل ثالث من العوامل الموضـــوعية التى تحتم كتابة تاريخ الطبقة العـاملة وتبرز أهميته ، ذلك أن تاريخ الطبقة العاملة ـ على نقيض تاريخ الملوك والحكام ـ يؤكد قيمة العمل الانسانى وقدرته الجبارة على خلق التقدم · ففى سياق هذا التاريخ تظهر صور الكفاح الانســـانى بروعتها وتظهر القصص الحقيقية للبطولات · انه معين لا ينضب من الاحداث والنماذج البشرية والمآسى والانتصارات كفيل بأن يلهب ويثرى ويلهم الكتاب والفنانين والادباء والمسرحيين · ان صفحات من هذا التاريخ تسطر عليها قصة الفلاحين المعدمين الراحلين الى المدن ، والطوائف الحرفية التى تنهـــار تحت وطأة النمـو الرأسمالى ، ومأساة المليون عامل فى فرقة العمل المصرية ، ومشاركة العمال فى ثـورة ١٩١٩ ، وحياة الاشـــتراكيين المبكرين ·· ومئات من الصور والاحداث ، ان صفحات من هذا الطراز لكفيلة بتموين الادب والفن الاشتراكى بزاد كبير·

تلك هى العوامل الموضوعية التى ترد على المتسائلين ، ولكن هناك أيضا عوامل ذاتيه ، فارتباط المؤلف بتاريخ الطبقة العاملة كان ولا يزال ارتباط حياة ، وارتباط عمل ، وارتباط فكر وكان حتميا أن تجد هذه الارتباطات سبيلها الى التعبير الخارجى من خلال هذا الجهد الفردى المحدود ·